المحاضرة الثالثة

-.أقسام الأخلاق :

أولًا: باعتبارها فطرية أو مكتسبة :

أ ــ أخلاق فطرية : و هي مكارم جبل عليها الإنسان ، فتكون سجية وطبيعية له و الأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل ؛ لأنَّ وجود الأخلاق الفطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميتها بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات ، والاستعداد الفطري لتقويمها وتعديلها وتهذيبها.

ومما يدل على الأخلاق الفطرية : حديث أشج عبد القيس، الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ((إن فيك خَلَّتين يحبهما الله: الحِلم، والأناة))، قال: يا رسول الله، أنا أتخلَّق بهما، أم الله جبَلني عليهما؟ قال: ((بل جبَلك الله عليهما))، قال: الحمد لله الذي جبلني على خَلَّتين يحبهما الله ورسوله.

قال ابن القيم: فدل على أن من الخُلق ما هو طبيعة وجِبِلّة، وما هو مكتسب.

ب ــ أخلاق مُكتَسبة:

يمكن تحصيلها بالتعلم والتعود عليها.كما دلَّ على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ((أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)).

قال ابن القيم: فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخُلق كسبيًا أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلُّف، حتى يصير له سجيةً وملكة.

ثانياً: تنقسم الأخلاق من حيث علاقتها إلى ثلاثة أقسام:

– القسم الأول: الخلق مع الله:

و نقصد به :القواعد والأسس التي تَحكُم علاقة العبد بربه (سبحانه وتعالى) وما يتفرَّع عنها من آداب وممارسات ظاهرة وباطنة.إنّ حق الله تعالى على الإنسان هو أعظم الحقوق على الإطلاق، والأدب مع الله هو أوجبُ الواجبات؛ إذْ هو الخالق، وحده لا شريك له، وما عداه مخلوق؛ فلا يستوي حقُّ المخلوق مع حق الخالق بحالٍ.

– من أصول المعاملة مع الله:

أ. لزوم طاعته واجتناب معصيته، والحرص على ألا يفقده ربه حيث أمره، وألا يراه حيث نهاه، سواءٌ ذلك في الغيب والشهادة، وفي السر والعَلَن، وفي العسر واليسر.

ب. احترام كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والتأدب معهما، والتسليم لهما، من غير غلوّ ولا تفريط في الفهم والتطبيق.

ج. إجلاله سبحانه، وتنزيهه عن كل نقْص، ووصْفه بما وَصَف به نفسه، وفْق ما جاء به كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم واعتقاد ذلك اعتقاداً جازماً.

د. إحسان الظن به سبحانه بما هو أهلُهُ عز وجل.

– القسم الثاني: الخُلُق مع النَّفْس:

ونعني به : ما يَلتزِم به المسلم في خاصة نفسه من آداب وأخلاق، وما يسوس به نفسه من تهذيب وتزكية وتربية.

– و من أصول معاملة الإنسان لنفسه :

أ. إلزام النفس بإخلاص العمل لله تعالى على كل حالٍ.

ب. إلزامها بالخُلُق الحسن والأدب مع الناس وسائر مخلوقات الله عز وجلّ، على أفضل وجه.

ج. البعد عن ظُلْم نفسه بشيءٍ من أنواع الظلم، سواءٌ كان ذلك بإتْباعها هواها على خلاف الشرع وحدودِ الاستقامة، أو بمَنْعها من الأخذ بالفُسْحة التي في ديننا.

د. إلزام النفس بالرضا عن الله، والرضا بقَدَرِ الله.

القسم الثالث: الخُلُق مع الخَلْق:

ونعني به : ما يَلتزِم به المسلمُ من أخلاق مع غيره، والأسس والقواعد الأخلاقية التي تَضبِط علاقته بالآخرين.

وهذا القسم يمكن تقسيمه إلى أقسام عدة؛ مِثْل:

– الخلق مع الأنبياء والرسل

– الخلق مع الوالدين

– الخلق مع أولي الأرحام

– الخلق مع المؤمنين،

– الخلق مع الكافرين . و غير ذلك.

– ومن أصول المعاملة مع الناس:

أ. أنْ تكون علاقته بهم قائمة على أساس علاقته مع الله.

ب. أن يَسُودُ الحُبُّ فيما بينهم وتختفي الكراهية والحِقد.

ج. أن يَسُودُ خُلُق إعطاء الحقوق، ويختفي العقوق ومنْع الحقوق.

د. أن يَسُودُ الإنصاف من النفس واتّهامها، ويختفي تَبْرئةُ النفس واتّهام الآخرين.

وإذا استعمَل الإنسان الأدب والمعاملة الحميدة المتعيّنة عليه تُجاه ربه الخالق سبحانه، وتُجاه الناس، وتُجاه نفسه، وتُجاه سائر مخلوقات الله تعالى؛ فإنه يَصير بذلك صاحِبَ أخلاقٍ حميدة.

فإذَنْ ليس بين الإنسان وبين مكارم الأخلاق إلا التعرّف على ما يَلزمه من معاملةٍ مع الله، ومع الناس، ومع نفسه، ومع المخلوقات الأخرى، ثم الالتزام والتطبيق.

– أمهات الأخلاق :

جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)).

هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله: (خذ العفو) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين.

و دخل في قوله: (وأمر بالعرف) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله (وأعرض عن الجاهلين) الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء.

قال جعفر الصادق (رحمه الله): "أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية".

و قد أرجع العلماء جميع الأخلاق الفاضلة إلى أربعة :

الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

و العفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة : تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل وكظم الغيظ والحلم.

والعدل : يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

وأرجع العلماء جميع الأخلاق السافلة، إلى أربعة:

الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل : يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن.

والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه. فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل.

والشهوة : تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب : يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.